العدد العشرون
2003

مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلّة إسلاميّة - ثقافيّة - جامعة - محكمة تصدر سنويًا

1371 من وفاة الرسول ﷺ الموافق لعام 2003 مسيحي

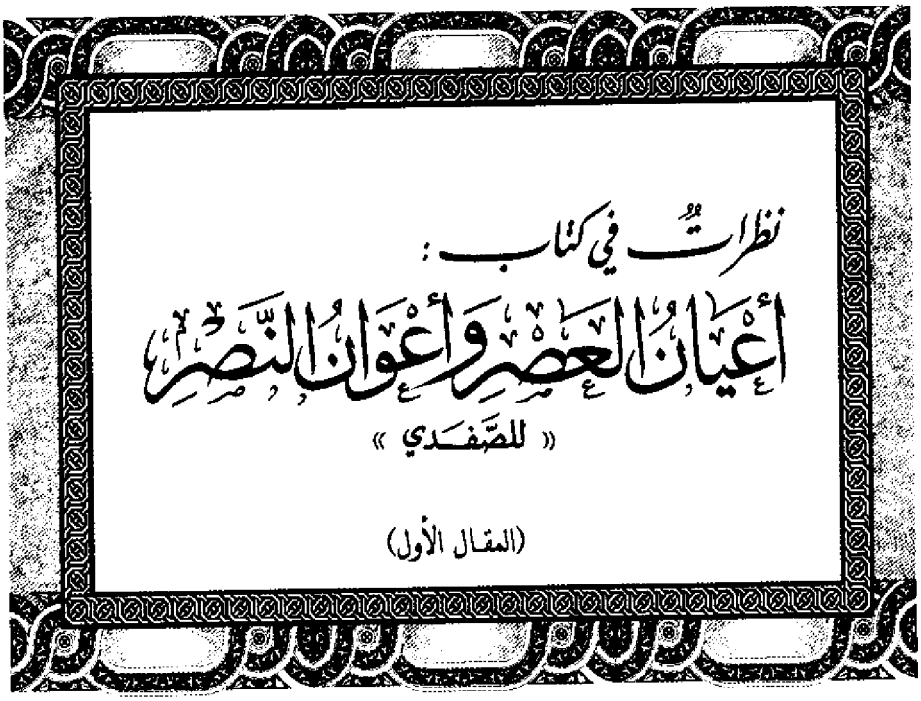

الدكتور: محمد عبد المجيد لاشين
عضو هيئة التدريس في المعهد العالي لإعداد المعلمين بجندر

تقدمة:

صدر بِأَخَرَة، في دمشق كتاب «أعيان العصر وأعوان النصر»، وقام بتحقيقه عدد من الأساتذة الأفاضل، وأحبُّ أنْ أقدِّم للقارىء الكريم هذا الكتاب الهام، وأدرس منهجه، وأضعه في الموضع اللائق به بين كتب التراجم، وفي الوقت نفسه أصحح بعض ما بدا لي فيه من هَنَات ارتأيت ضرورة التنبيه إليها، وبيان وجه الصواب فيها، واستكمال بعض أوجه النقص التي غفل عنها المحققون.

مؤلف الكتاب هو أبو الثناء خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي وهو مؤرخ، وشاعر، وناقد، وأديب، وعالم مشارك في كثير من علوم عصره، ومن المكثرين في التأليف، له عشرات الكتب، ولا تكاد تخلو مكتبة من دور الكتب

الكبرى في العالم، من العديد من مخطوطات مصنّفاته، وطبع له منها نحو من سبعة عشر كتاباً، وهذا الكتاب من أحدثها طباعة.

ولد في صفد(*)، في سنة 696هـ/ 1296م، وإليها نسبته، وتلقّى تعليمه الأول فيها، ثمّ رحل إلى دمشق، والقاهرة طلباً للعلم، وتلمذ للمشاهير من العلماء، في مقدّمتهم أحمد بن عبد الحليم، ابن تيمية (ت728هـ)، ومحمد بن يوسف، أبو حيّان (ت745هـ) والإمام محمد بن أحمد، الذهبي (ت748هـ)، والحافظ يوسف بن عبد الرحمن، المزّي (ت742هـ)، وتقي الدين علي بن عبد الكافي، السبكي (ت 756هـ)، والقاسم بن محمد، البرزالي (ت739هـ)، ومحمد بن محمد، ابن سيّد الناس (ت734هـ)، وأبو الثناء محمود بن سلمان بن فهد (ت725هـ)، ومحمد بن محمد بن محمد، ابن نباتة (ت768هـ) وعشرات غيرهم من أعلام الفكر العربي في القرن الثامن الهجري.

كتب الإنشاء في صفد، وفي رحبة مالك بن طوق، وفي حلب، واستقرّ به المقام في دمشق، وقصده طلاب العلم، وقرأ عليه البعض من شيوخه، وأجمع من ترجموه على مدح أخلاقه، وحسن عشرته، وظَلّ عَلَماً بارزاً في سماء دولة المماليك ـ وهو واحد من أمرائهم ـ إلى أنْ لقي ربَّه في طاعون سنة 764هـ ـ 1362م[1].

يضم الكتاب تراجم لمشاهير الرجال والنساء المعاصرين للصفدي في أواخر القرن السابع، وأكثر القرن الثامن الهجريين.

نشره مصوَّراً فؤاد سزكين، ومازن عماوي، في منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، جامعة فرانكفورت بألمانيا في سنة 1990م، وجاء في مقدمة النشرة، أنَّ الكتاب كان في 12 جزءاً، بقي منه بخط المؤلف سبعة

(*) صَفَدَ: مدينة فلسطينية في جبال عاملة المطلة على حمص (انظر: معجم البلدان 3/ 412).

(1) لمزيد من التفاصيل عن حياة الصفدي، ومكانته العلمية يراجع الفصل الرابع من كتابي «الصفدي وآثاره في الأدب والنقد».

مجلدات في طوبقبو سراي/ أحمد الثالث، رقم 2621، و2010، وفي لاله لي رقم 1996، وفي أيا صوفيا المجلدات 2996، 2968، 2969، وفي الأسكوريال، رقم 1722.

وتوجد نسخ أخرى من الكتاب، بغير خط المؤلف، في مكتبات إستانبول، وبرلين، وباريس، وتونس، والقاهرة، وغيرها، وأصل النشرة نسخة كاملة، من الكتاب، كتبت في سنة 972هـ، تنقص خمس صفحات فقط، ورقمها 1809، محفوظة في عاطف أفندي، المكتبة السليمانية بإستانبول، وكان د. رمضان ششن قد أشار إلى هذه النسخة في كتابه نوادر المخطوطات العربية في مكتبات تركيا.

قام بتحقيقه الدكاترة: على أبو زيد، ونبيل أبو عمشة، ومحمد موعد، ومحمود سالم محمد، وقدَّم له الدكتور مازن عبد القادر المبارك، وصدر في سنة 1997م، في طبعته الأولى، في دار الفكر في دمشق، ودار الفكر المعاصر في بيروت، من مطبوعات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبيّ.

أعيان العصر وأعوان النصر:

لا يختلف هذا الكتاب عن الوافي بالوفيات في موضوعه؛ من حيث كونه يشتمل على تراجم الرجال العامة، التي لا تختصُّ بفئة معيّنة، وإن كان يضمّها عصر واحد؛ ولذلك لم يقدّم له بمقدمات، واكتفى بخطبة، أعاد فيها ما سبق أنْ ذكره في خطبة الوافي بالوفيات من فائدة التاريخ، وضرورة الاطلاع على سيرة السابقين؛ لما في ذلك من الموعظة الحسنة، فمَنْ «راجع التواريخ كان كَمَنْ شَاهَدَ مَنْ مَضَى وعَايَنَ ما جرى به عليه القَدَرُ وقَضَى، وأنا أرى التأريخ، والترجمة مِعَاداً ثانياً في المعنى، لا في الوجود، ونَشْراً أوَّلَ قبل نَشْرِ الرُّفَاتِ، إلاَّ أنّها لم يُفَضَّ عنها خَتْمُ اللُّحُود»[2].

وذكر سبب تأليفه، والخطة التي رسمها له.

(2) أعيان العصر 1/ 37.

أمّا السبب ـ كما يقول ـ[3]: «هو شيء جمعته لنفسي، لا لأحد من أبناء جنسي وجعلته لي رأس مال.. وما هو إلاّ كالجبّانة أزور فيها قبور أصحابي، وأتردد منها إلى أجداث أترابي وأحبابي، وألتفّ في أكفان شيبي الذي نزل بي وأَقْسَمَ أنّه ما يرحل إلاّ بي، فقد ذكرت فيه جماعة رأيتهم، وما رأيتهم ودانيتهم حق الصحبة، وما داينتهم ورَثَّتْ حبال صبري التي ورثتها لمّا رثيتهم، ممن انتفعت بعلومهم، ورُفِعْتُ بين نجومهم، وشَرَكْت بعضهم في ماله....».

وإذا قارنّا كلام الصفدي بما ادّعاه تاج الدين عبد الوهاب بن علي، السبكي ظهر لنا بطلان دعواه، قال السبكي[4]: «ما صنّف كتاباً إلاّ وسألني فيه عمّا يحتاج إليه من فقه، وحديث، وأصول، ونحو، لاسيما «**أعيان العصر**» فأنا أشرت عليه بعمله، ثم استعان بي في أكثره»[5].

والكتاب يكاد يخلو من الفقه، والحديث، والأصول، والنحو إلا ما كان حواراً بين الصفدي، وشيوخه، ولا مجال فيه لرأي، لا للسبكي ولا لغيره، وكل تلك القضايا موجودة في كتابه الوافي بالوفيات الذي بدأ التأليف فيه قبل أنْ يولد التاج السبكي نفسه، فالدافع إلى التأليف كان نابعاً من نفسه، معبّراً عن رغبته في الوفاء لذكرى أصحابه.

وأمّا الخطة فهي:

أولاً: ترتيب أسماء المترجمين على حروف المعجم.

ابتدأ فيه من سنة مولده، وهي سنة 796هـ، وانتهى فيه إلى قبيل وفاته بعشرة أيام فقط في سنة 764هـ.

ثانياً: يذكر الصفدي أنه قرأ في أخبار أحمد بن عبد الله، ابن زيدون (ت

---

(3) نفسه 1/ 38.

(4) أبو نصر، عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي، تاج الدين (727 ـ 771هـ) قاضي قضاة الشافعية، مؤرخ، فقيه، أصولي. انظر: ألحان السواجع 1/ 505، والوافي بالوفيات 19/ 315، والأعلام 4/ 184، ومعجم المؤلفين 6/ 225.

(5) طبقات الشافعية الكبرى 10/ 5.

463هـ/ 1071م) خبراً عَلِق في ذاكرته، وأثار فضوله وإعجابه؛ فعندما كان ابن زيدون وزيراً بقرطبة، توفّيت له ابنة، ولمّا فرغ من دفنها، وقف للناس عند منصرفهم؛ ليشكر لهم مواساتهم، فما أعاد في ذلك الموقف عبارة قالها لواحد ممن جاء لتقديم العزاء له، وبيّن الصفدي أن هذا أمر صعب إلى الغاية، فهو أشقّ مما يحكى عن أبي حذيفة، واصل بن عطاء الغزّال (ت131هـ/ 748م) الذي كان يجتنب حرف الراء من الكلمات؛ لأنه يلثغ بهذا الحرف لثغة قبيحة؛ وذلك لكثرة المترادفات في اللغة، التي تساعده على أنْ يستبدل كلمة تخلو من حرف الرَّاء بأخرى.

قلّد الصفدي ابن زيدون في طريقته، وسار على دربه؛ فحرص على ألا يعيد عبارة الرثاء التي قالها في واحد من المترجمين، وإذا عرفنا أن الكتاب يضم 2017 ترجمة قدّرنا المشقّة التي ألزم نفسه بها؛ وهي أنْ يعبّر عن معنى الوفاة بجمل لهذا العدد الضخم من المترجمين، وأعانه عليها مقدرة فائقة في توليد المعاني، ولمح الدلالات البعيدة للكلمات المتشابهة منها، أو المتناقضة، فمن ذلك:

* قَدْ يجد في الاسم أو اللقب أو الكنية ما يصلح لبناء العبارة عليه، فمثلاً:

عن أحمد بن برق، يقول[6]: «انطوى بَرْق ابن برق، فكأنّه لم يلمع في غرب ولا شرق».

وعن أحمد بن أبي بكر بن **ظافر**، يقول[7]: «ظَفَر عَلَى ابن ظافر من الموت ظافر، وأنشب فيه مخالبه والأظافر».

وعند أحمد بن بَلَبَان، ابن **النقيب**، يقول[8]: «نُقِب القبر لابن النقيب، وأصابت كمَالَهُ عَيْنُ الرقيب».

* وقد يوحي إليه ضدُّ اللفظ بما يريد، فمثلاً:

---

(6) أعيان العصر 1/ 197.

(7) نفسه 1/ 201.

(8) نفسه 1/ 202.

عن بدر الدين، أحمد بن بيليك **المُحْسني**، يقول[9]: «أساء الدهر إلى ابن المحسنيِّ، وذهب من حياته بالرائق السنيِّ».

وعن محمد بن أحمد بن عثمان، ابن **عدلان**، يقول[10]: «ولم يزل إلى أنْ تسجّى، وعُدّ فيما لا يُرَجّى».

* وقد يستلهم عبارته من الطريقة التي مات بها المترجم، فمثلاً:

عن أحمد بن أبي بكر، أبي جَلْنَك، الشاعر الذي **قتله** التتار، يقول[11]: «ضُرِبت عنقه، وخلا من كوكبه أفقه».

* وقد يستلهم عبارته من مهنة الشخص، أو شهرته، فمثلاً:

عن أحمد بن عبد الملك، **تاجر الثياب**، يقول[12]: «طُوِيت من الحياة شُقّته، وعُدم ما بين معاشريه لطفه ورقّته».

وعن أحمد بن محمد، **المسند**، يقول[13]: «ولم يزل على حاله إلى أنْ مال عُمُدُه، واتّصل بغيره سنده».

وعن أحمد بن عبد الرزّاق، ووزير الممالك القازانيّة، وكان **ظالما** سفّاكا للدماء، يقول[14]: «ولم يزل في ظُلْمَةِ ظُلْمِه خابطاً، وعمله بذاك عند الله حابطاً، إلى أنْ عَضّه السّيف بريقه، واختطف بصره من بريقه».

وعن أحمد بن سعد بن محمد الأَنْدَرْشِي الصوفي النحوي، وكان يقرىء تلاميذه كتاب **التسهيل** وشرحه، لابن مالك يقول[15]: «ولم يزل مكبّاً على

---

(9) نفسه 1/ 206.
(10) نفسه 4/ 298.
(11) نفسه 1/ 190.
(12) نفسه 1/ 169.
(13) نفسه 1/ 314.
(14) نفسه 1/ 265.
(15) نفسه 1/ 217.

التسهيل حتى محقه الإسهال، وذكره الموت بعد الإمهال والإهمال».

وأمَّا إبراهيم بن يوسف القاضي المؤتمن فـ«الله أعلم بسريرته؛ فإنّ الناس كانوا يتهمونه في دينه»؛ فيقول في وفاته: «ولم يزل إلى أن بلغ نهاية أمده، وتفرّد في قبره بمعتقده»[16].

* وقد يصحّف الاسم أو اللقب؛ فيحصل على بغيته، فمثلاً:

عن أحمد بن خليل **البُرَاعي**، يقول[17]: «ولم يزل على حاله إلى أنْ مُرِّغَت بالموت صفاته، وشُرِّعت وفاته».

* وقد يعتمد الجناس للحصول على ما يريد، فمثلاً:

عن أحمد بن عبد الرحمن، شهر **بالعابر** ـ وكان أعجوبة في تفسير المنامات ـ يقول[18]: «أصبح العابر غابراً، والمكاثر في تعظيمه لمصابه مكابراً».

وعن أحمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم **الصرخدي** القوّاس، يقول[19]:

«أصاب القوّاسَ سهم الموت، وصرخ بالصرخدي داعي الفوت».

وعن أحمد بن محمد بن أبي القاسم **الدَّشْتي**، يقول[20]: «ولم يزل إلى أنْ انقلب دسْت الدّشتي وحار فيما نزل به الطبيب والمفتي».

* وفي قليل جدّاً من الأحيان، لا يجد ما يقوله إلاّ نقل الخبر[21].

---

(16) نفسه 1/ 140.

(17) أعيان العصر 1/ 216.

(18) نفسه 1/ 259.

(19) نفسه 1/ 258.

(20) نفسه 1/ 351.

(21) راجع مثلاً: 1/ 196، 214، 215...

بين الوافي والأعيان:

كثير من تراجم المعاصرين للصفدي قد تتكرر في أكثر من كتاب من كتبه، فللذهبي مثلاً ترجمة في أربعة كتب، هي: الوافي بالوفيات، وأعيان العصر، ونكت الهميان، وألحان السواجع، ولكل كتاب منها منهج خاص به، وأسلوب متميّز، ومقارنة الترجمة لشخصية واحدة في الكتب المختلفة تُظْهِر فرقاً واضحاً بين أسلوب الصفدي فيها؛ فهو في **الوافي بالوفيات مؤرخ**، وفي **أعيان العصر أديب**، يتضح هذا الفرق من تعبيره عن المعنى الواحد في الكتابين، فمثلاً:

في ترجمة أبي الحسن، علي بن محمد، ابن الرسام[22] يقول في كتاب الوافي بالوفيات: «وكان يكتب خطًّا جيّداً إلى الغاية، والغريب أنّه كان يكتب هذه الكتابة المليحة بيده اليسرى، ولا يُحْسن يكتب باليمنى شيئاً».

والعبارة نفسها في الأعيان: «يكتب بيده اليسرى خطًّا كأنّه العقود المنظومة، أو حلل الوَشْي المرقومة، يُعْجِبُ كلّ من يراه، ويَجْعَلُ كل أَحَدٍ إليه سَيْرَهُ وسُرَاه».

وفي ترجمة الأمير بدر الدين بَيْسَري يقول في الوافي[23]: «قبض عليه الملك المنصور، وبقي في السجن تسع سنين».

والعبارة نفسها في الأعيان: «قبض المنصور قلاوون عليه، وأهدى الإهانة إليه، وبقي في السجن سنين، عدد الرّهط الذين يفسدون في الأرض، وخالف في أمره السُّنّة والفرض»، وهو يشير بالرهط المفسدين إلى قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾[24].

وقارن ترجمة زين الدين، علي بن أبي الحرم، الكتاني في الكتابين[25].

وعلى الرغم من أن الصفدي يصرّح بأن الوافي بالوفيات تاريخ مطوّل،

---

(22) الوافي 22/ 179، والأعيان 3/ 520.

(23) الوافي 10/ 364، والأعيان 2/ 99.

(24) سورة النمل، الآية: 48.

(25) الوافي 22/ 449، الأعيان 3/ 601.

وكان يُسَمِّيه «التاريخ الكبير»؛ فأراد بعد الفراغ منه أنْ يختصره في أعيان العصر[26]، ومع ذلك فإنه لا يمكن اعتبار الأعيان مجرد ملخّص للوافي، وذلك للأسباب الآتية:

* في أعيان العصر تراجم كثيرة لا وجود لها في الوافي، كما يوجد في الوافي أيضاً تراجم من معاصريه لا وجود لها في الأعيان، ولم تتّضح لي أسس اختيار الصفدي لتراجم الكتاب، وقد يكون السبب سهواً منه، أو فقداناً لبعض صفحات من الكتاب، وبخاصّة إذا علمنا أنَّ الصفدي كان يكتب تراجمه في أوراق منفصلة، ثم يضمّ بعضها إلى بعض فيما بعد، وهذا يتّفق مع غرضه، فكلّما بلغه خبر عن معاصر له كتب ترجمته في أوراق، ووضعها في موضعها من الترتيب الأبجدي، فلا يبعد فَقْدُ بعض التراجم.

* في أعيان العصر توسّعٌ وتفصيل في أغلب تراجمه أكثر بكثير مما هي عليه في نظائرها من الوافي، بحيث لا يمكن اعتباره اختصاراً له، وقد يكون العكس هو الصحيح؛ فترجمة زين الدين الكتاني المذكور تأتي في الوافي في صفحة واحدة، وثلاثة أسطر، وبأسلوب علمي مباشر، وتأتي الترجمة ذاتها في الأعيان في أكثر من ثماني صفحات، وفي أسلوب أدبي منمّق.

* في الوافي بالوفيات لا نكاد نجد له عناية بالوثائق التاريخية، وهذا أمر لا يلام عليه، فلم يكن معاصراً لكل من ترجمهم، وفي الأعيان نجد عدداً أكبر من الوثائق التاريخية، والصور الاجتماعية، والعادات، والتقاليد، وألفاظ اللغة المتداولة، وكلُّها تعطي للكتاب أهميّة كبيرة.

* لا يُعَدّ كتاب الأعيان مجرّد قبور يزور فيها أصحابه الذين سبقوه ـ كما قال ـ بل هو، في واقع الأمر مَعْرِضُ جمال، ومُتْحَف فنون، أراد به أنْ يستمتع بمشاهدة آياته وتحفه، وأنْ ينسّق مقتنياته، وينفي عنه كل ما يراه قبيحاً، فصوّر فيه الناس، والبيئة، والعادات، والأخلاق في لوحات معبّرة.

---

(26) أعيان العصر 1/ 38.

ولعلَّ أظهر لوحاته، وتحفه الخطوط الجميلة التي اتخذها الصفدي موضوعاً لمدحه وتغزلاته، ويستعرض فنونه البلاغية في تقريظها، والهيام في حسنها، وكأنه يقدّم لقارئه معرضاً لفن الخط.

يقول عن خط البرزالي[27]: «خطه كالوشي اليماني، أو رونق الهندواني، لم يُخَلِّفْ بعده في الطلب وعَمَلِه مِثْلَه، ولا جاء من وافق شكلُه شكلَه».

ويصف خط محمد بن علي الزَّمْلَكَانِيِّ بقوله[28]: «لم يكتب أحد في زمانه مثل تعليقه، ولا يصل معه كاتب إلى تغليقه، كأنّ طروسه رياض دَبَّجَها أيدي الغمام، سطوره حدائق أَلِفاتُها غصون، والهمزات عليها حمام، كأنّما:

تَـنَـاوَلَ مِـنْ لَـطَـافَـتِـهِ نَـهَـاراً وَفَـرَّقَ فَـوْقَـهُ لَـيْـلاً بَـهِـيـمَـا

وعن خط ابن سيّد الناس[29] يقول: «خطه أبهج من حدائق الأزهار وآنق من صفحات الخدود المطرّزِ وردها بآس العذار».

وقال عن خط أبي الثناء محمود بن سلمان بن فهد[30]: «وخطه من أين للوشي رَقْمه أو للعقد نَظْمه، أو للروض زَهْره، أو لطرف الحبيب سِحْره، أو للنجوم طرائقه، أو لخطوط إقليدس دقائقه، أو للفكر الصحيح حقائقه؟ قد نمّق أوضاعه المتأنِّقَة، ونسخ محاسن مَنْ تقدّمه بحروفه المحقّقة:

يُـنَـمْـنِـمُ الْـخَـطَّ لاَ يَـجْـتَـابُ أَحْـرُفَـهُ وَالْوَشْيُ مَهْمَا ـ حَكَاهَا ـ مِنْهُ يُجْتَابُ

لَوْ لَمْ يَكُنْ مُسْتَقِيماً بَعْدَ مَا سَجَدَتْ فِيهِ الْمَعَانِي لَقُلْتُ: السَّطْرُ مِحْرَابُ

أَمْـلَـى تَـصَـانِـيـفَ فِي أَكْـمَـامِـهَـا ثَـمَـرٌ تَـجْـنِـيـهِ بِـالـفَـهْـمِ دُونَ الـكَـفِّ أَلْـبَـابُ

ويقول عن خط ابنه محمد بن محمود[31]: «كان يكتب خطاً نقشاً نغشاً مليحاً إلى الغاية».

---

(27) نفسه 4/ 50.

(28) أعيان العصر 4/ 628.

(29) نفسه 5/ 203.

(30) نفسه 5/ 272.

(31) أعيان العصر 5/ 255.

وإذا لم تعجبه اللوحة، انصرف عنها، وفي نفسه منها شيء، يقول عن خط أستاذه محمد بن محمد، ابن القَوْبَع[32]: «كان خطه مغربياً، وليس بجيّد».

في ترجمة أحمد بن الحسن، الحاكم بأمر الله، يقول الصفدي ساخراً[33] نقلاً عن الذهبي: «خَرَّجَ له ابن الخبّاز بخطه الوِحشِ، وانتخابه العِفِشِ أربعين جزءاً...».

وابن الخبَّاز هذا هو أبو الفداء، نجم الدين، إسماعيل بن إبراهيم، الأنصاري، يقول عنه الصفدي: «وكان يؤدب في مكتب، ولم يكتب خَطًّا غير خَطَا، ولا كان له في صورة الكتابة ما يُرَى وسَطَا»[34].

يصدق على هذا المتحف، بحق ما وصفه به الأستاذ الدكتور مازن عبد القادر المبارك، قال[35]: «إنّ الكتاب موسوعة للتراجم، والتاريخ، والاجتماع، واللغة، والأدب، وغير ذلك:

* ففيه أخبار الرجال وسيرهم لمن أراد التراجم.

* وفيه الوقائع والأحداث لمن أراد التاريخ.

* وفيه العادات والتقاليد لمن أراد الاجتماع.

* وفيه النصوص الأدبية من شعر، ونثر، ومحاورات، ومخاطبات، إلى جانب اللغة المحكّية، والأحاديث اليومية، وما دار فيها من مصطلح، ودخيل، وعَامِّيّ.

* وفيه إشارات توثق بعض آثار ذلك القرن من مساجد، وقلاع وسواها، وإنّ في كل ذلك لجديداً لا تجده في غيره».

ويمكن القول: إنَّ الصفدي لم يسبقه أحد ـ فيما أعلم ـ إلى تأليف مثل

---

(32) نفسه 5/ 154.

(33) نفسه 1/ 210.

(34) نفسه 1/ 493.

(35) نفسه 1/ 10.

هذا الكتاب؛ صحيح أنّ هناك مَنْ ترجم المعاصرين له، مِنْ قبله، من أمثال:

* أبي منصور، عبد الملك بن محمد الثعالبي (ت429هـ/ 1037م) في كتابيه يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، وتتمة اليتيمة.

* وأبي الحسن، علي بن الحسن الباخرزي (ت467هـ/ 1074م) في دمية القصر وعصرة أهل العصر.

* والعماد الكاتب (ت597هـ/ 1200م) في خريدة القصر وجريدة العصر.

ولكنّ ما أبعد الفرق بين هذه الكتب وبين الأعيان، وذكر نماذج من تراجم تلك الكتب، ومقارنتها بتراجم الأعيان تظهر بوضوح ابتكار الصفدي وسَبْقه؛ فقد نهج طريقاً لم يسلكها أحد من قبله، ومهّد بها لمن جاء من بعده، واقتفى أثره، فمن الفروق بينها وبينه:

* إن إطلاق لفظ التراجم على ما حوته تلك الكتب يحمل في طيّاته الكثير من التجوّز، بل أصدق وصف لها أنْ يقال عنها: إنّها تقريظ، ومدح، واختيار لنصوص، لا أكثر من ذلك؛ فهي من باب النثر الفني، أو الإنشاء الأدبي، فمثلاً اقرأ هذه النماذج من التراجم من تلك الكتب المشار إليها:

يقول الثعالبي في ترجمة أبي محمد، عبد الله بن محمد النامي، الخوارزمي، الشاعر:

«أنا أختم هذا الباب بذكر من هو لِلْعِلْم مجمع، وللأدب مفزع، وإليه الرّحلة اليوم ببغداد، في تدريس كتب الشافعي ـ رحمه الله ـ مع الشيخ أبي حامد الإسفرائيني ـ أيّده الله ـ وله لسان يستوفي أقسام الفصاحة، ويجمع بين العذوبة، وحسن العبارة والبراعة، وشعر يشرف بصاحبه، ويأخذ من القلب بمجامعه، كقوله . . . . . .»[36] ثم يذكر بيتين من شعره، ولا شيء غير هذا.

ويقول الباخرزي في ترجمة أبي القاسم عزيزان بن محمد، الخطّاط، النظّامي، التبريزي: «استكرمه الصاحب نظام الملك ـ أدام الله علوّه ـ فارتبطه

(36) اليتيمة 3/ 122.

وقبض منه الزمان فبسطه، وأسكنه المدرسة المعمورة بنيسابور، وهو يغرس بخطّه الدُّرَّ في أرض القراطيس، وينشر عليها أجنحة الطواويس، أنشدني، لنفسه. . .»[37] ويذكر شيئاً من شعره.

ويقول العماد الكاتب في ترجمة حمَّاد بن منصور، البزاعي، الخرّاط: «ليس بالشام في عصرنا هذا مثله: رقة شعر، وسلامة نظم، وسهولة عبارة ولفظ، ولطافة معنى، وحلاوة مغزى، بأسلوب سالبٍ لِلُبِّ، خالبٍ لِلْخِلْب، وصنعته عارية من التكلف، نائية من التعسف، تترنّح له أعطاف السامعين، وتُنْبِع رِقَّتُه في رياض اللطف الماءَ المعين، لمّا كنت بحلب، وعند تردُّدي إليها في عهد نور الدين ـ سقى الله ثراه عِهَاد الرحمة ـ ما زلت أسمع من شعره ما يزيدنا طرباً، ويفيدني عُجْباً وعَجَباً، ومن جملة ما علقته من شعر حمّاد وهو يُحْيِي كلّ جماد قوله. .»[38]، ويذكر شيئاً من شعره.

من هذه النصوص يتّضح طريق تلك الكتب في التراجم، وأغلبها على هذا النمط؛ فلم يُعْنَ مؤلفوها بما يجب أنْ تنبىء به الترجمة من تاريخ المولد، والوفاة، وحال المترجم، وشيوخه، وتلاميذه، وبيان مؤلفاته إلاّ في القليل النادر. . . بينما نجد الأعيانَ كِتاب تراجم على أكمل أنموذج، يعرّف بالشخص تعريفاً وافياً شافياً، ويجعل الترجمة أقساماً:

في القسم الأول: منها يعرّف به من حيث: اسمه، ونسبه، وكنيته، ولقبه، ومهنته، ووظائفه، مع وصف شامل ودقيق لأخلاقه، وعاداته، وسلوكه، وعلاقاته بالناس، وأثره في معاصريه، ومكانته العلمية والاجتماعية، ومنزلته بين أقرانه، ومدى قربه من نفس الصفدي، ويسوق هذا القسم من الترجمة في عبارة أنيقة فخمة، وجمل مسجوعة عذبة، ويطوّل فيه، أو يقصّر بحسب مكانة المترجم، ومنزلته.

ينتقل بعد هذا إلى **القسم الثاني** وفيه يتحدث عن نشأته، وأبرز أحداث

(37) دمية القصر (تح مكي) 1/ 196.

(38) خريدة القصر (شعراء الشام: 2/ 130.

حياته وأعماله، وبيان وافٍ لأشهر شيوخه، وتلاميذه، ومؤلفاته، إنْ كانت له مؤلفات، ثم يأتي بنماذج منتقاة من شعره، أو نثره، وربّما انتقد بعضها، أو أورد ما يناسبها، أو ما هو أحسن منها، أو الأصل المسبوق، به، وما بينه وبين الصفدي من مراسلات، ومعارضات، وألغاز. . . ويؤرخ لولادته، ووفاته إلاّ إذا لم يتأكد له أحد التأريخين، أو كلاهما فيترك مكانه خالياً، وهو قليل جداً في كتابه.

وإذا كان العَلَمُ المترجم عنه من السلاطين، أو الخلفاء، أو الأمراء، أو الحكام؛ فإنّه يفصِّل أعماله، وكيفية توليه الحكم، واستقبال الرعيّة له، ومكانته بين الملوك، أو الأمراء، وتصدّيه لأعدائه، وبرّه أصحابه، وتكاد تكون الترجمة تأريخاً يوميّاً يواكب حياة الرجل في ولايته، ولا يغفل ـ في الوقت نفسه ـ تصوير أخلاقه، وحياته الأسريّة ونظام معيشته، يسوق ذلك في أسلوب بسيط، خال من التأنّق، تشيع فيه العاميّة، والألفاظ الدخيلة، والعبارات السائدة في عصره، فهو يحكي حديث الناس في أمانة، ويمثّل هذا الجزء أهميّة كبيرة لدارسي اللهجات، ومتتبعي التطور اللغوي، والصوتي للكلمات، ومَوْلِد بعض المعاني والمصطلحات، وقد أثبت محققو الكتاب منها 608 كلمة في الفهرس المعنون باسم «المصطلحات المملوكية»، وأغفلوا بعضاً منها، وهو ما سيأتي شرح لبعضها في هذا المقال.

* ترجمت تلك الكتب فئة واحدة من الناس، هي الطبقة العليا: الحكام، وأهل الفكر من علماء، وأدباء، وشعراء؛ ففي اليتيمة مثلاً قدَّم الثعالبي كتابه بذكر الملوك، وأتبعهم بالوزراء، ثم الكتَّاب، والقضاة، والشعراء، وسائر الفضلاء[39].

وسار ابن سعيد المغربي[40] على نهج الثعالبي، فوضع كتابه «المغرب في

(39) انظر: مقدمة يتيمة الدهر 1/ 20 ـ 22.

(40) أبو الحسن، علين موسى بن محمد، نور الدين، ابن سعيد (610 ـ 685هـ) شاعر، مؤرخ، من بيت رئاسة وملك، له رحلة إلى المشرق، ومؤلفات كثيرة. انظر: الذيل والتكملة 5/ 411، والأعلام 5/ 26، ومعجم المؤلفين 7/ 249.

حلى المغرب» ووضع تراجمه في خمس طبقات، هي: طبقة الأمراء، وطبقة الرؤساء، وطبقة العلماء، وطبقة الشعراء، وطبقة اللفيف، وقد يتبادر إلى الذهن أنَّ كلمة اللفيف هذه تعني عامة الناس، بل هي من الطبقة العليا أيضاً، والفرق بينها وبين غيرها هو ما ذكره ابن سعيد نفسه فقال: «والأربع الأولى مخصوصة بمن له نظم من أولى الخطط المذكورة، ولها تفسير تقف عليه في مواضعه، وطبقة اللفيف مخصوصة بمن ليس له نظم من أي صنف كان ممن لا يجب إغفاله»[41]؛ فأساس التقسيم «عنده من له نظم، ومن لا نظم له»، وهما جميعاً من الأعيان الذين لا يجب إغفالهم كما يقول.

بينما كانت دعوة الصفدي الجفلى في الأعيان ـ كما كانت في الوافي، بحسب قوله، فلم يترك من أعيان المجتمع فرداً، بلَغَه خبره، لم يترجمه، سواء أكان أميراً، أم وزيراً، أم عالماً، أم تاجراً؛ فلم يترك أحداً حتَّى الخارجين على القانون، وأصحاب البِدَعِ، ومن يحسن حلَّ الأغاز، بل ترجم عبد الرحمن بن أيُّوب مغسِّل الموتى.

* تشترك تلك الكتب مع الأعيان في اختيارات النصوص الأدبية؛ ولكنها خلت تماماً من تصوير لعصرها في العادات، واللغة، والأزياء، والأحداث... بينما وفّى الأعيان تصوير تلك الجوانب.

* خلتْ تلك الكتب تماماً من الوثائق التاريخية، بالعكس من الأعيان الذي ضم المئات من تلك الوثائق الهامة.

* اقتصرت تلك الكتب على تقسيم جغرافي محدود، يتناول أحياناً أعيان المدينة الواحدة وأحياناً الكورة، أو الإقليم، بينما شمل الأعيان كل المعاصرين له، في كل مكان.

* يمكن أنْ نجد في دواوين الشعراء، ومجاميع الأدب، وكتب التاريخ ما يغني عن تلك الكتب؛ لخلوّها من المعارف التاريخية.

---

(41) انظر: في تاريخ العلم، مقال للدكتور فخر الدين عامر، مجلة كلية اللغات، طرابلس 12.

ولا يوجد ـ فيما أعلم ـ ما يغني عن الأعيان، ويمكن القول[42]: «إن الصفدي سن للناس من بعده سنّة التأليف في هذا الفن «**تراجم المعاصرين**»؛ فأنشأ بعده ابن حجر العسقلاني (ت852هـ/ 1448م) كتابيه: «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة»، و«إنباء الغُمر بأبناء العُمر».

وتمّم إبراهيم بن عمر البِقَاعِيّ (ت 885هـ/ 1480م)[43] كتاب الأعيان في كتابه «عنوان الزمان في تراجم الشيوخ والأقران»، وترجم فيه بالتأريخ الأعيان من 855 ـ 885هـ، واختصره في «عنوان العنوان».

كما تمّمه ـ أيضاً ـ أحمد بن محمد بن عمر، الأنصاري، ابن الحمصي (ت 934هـ/ 1527م)[44] في كتابه «حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران» ترجم فيه لمعاصريه من سنة 851 حتى 930هـ».

وترسّم محمد بن طولون الصالحي الدمشقي (ت 853هـ/ 1449م) خُطَا الصفدي في أعيان العصر؛ فكتب كتابه «ذخائر القصر في تراجم نبلاء العصر»، وسار على نهجه في كتابه «ألحان السواجع بين البادي والمراجع» الذي جمع فيه الصفدي مراسلاته مع معاصريه؛ فكتب ابن طولون كتابه «التمتع بالأقران بين تراجم الشيوخ والأقران».

وجاء في دائرة المعارف الإسلامية أنَّ الكتاب كان واحداً من أهم مصادر ابن حجر في كتابه «الدرر الكامنة».

كما استشهد به عبد الرحيم الواسطي، في النسخة المطبوعة في القاهرة سنة 1305هـ، من طبقات الفرقة الصوفية، بعنوان «تراجم أعيان العصر»[45].

---

(42) مقدمة الأعيان 1/ 23.

(43) البقاعي (809 ـ 885هـ) مؤرخ، أديب، له «عنوان الزمان في تراجم الشيوخ والأقران»، ثم اختصره في «عنوان العنوان».
انظر: الأعلام 1/ 56، ومعجم المؤلفين 1/ 71.

(44) ابن الحمصي (851 ـ 934هـ) مؤرخ، من كتابه ثلاث قطع تبدأ الأولى بحوادث 851، وتنتهي الثالثة بآخر 930هـ.
انظر: الأعلام 1/ 233، ومعجم المؤلفين 2/ 138.

(45) دائرة المعارف الإسلامية 14/ 220.

منهج الصفدي في التراجم

تختلف تراجم الصفدي في كتابيه الوافي بالوفيات وأعيان العصر باختلاف مصدرها، وهي، في الغالب، ثلاثة مصادر: الكتب، والرواية الشفهية، والمعرفة المباشرة.

التراجم المنقولة من مصدر مكتوب:

تختلف طولاً، وقصراً بحسب ما اختصره الصفدي منها، أو تصرّف فيها، وقد ينقلها نقلاً كاملاً، بلا تغيير، كما تختلف مادتها باختلاف مصدرها.

فمثلاً في التراجم المنقولة من تاريخ الإسلام للذهبي، نجده يهتم بذكر شيوخ المترجم، وتلاميذه، ومروياته، ولا يزيد عنه شيئاً إلاّ إثبات شيء من شعره إنْ وَجَدَ له شعراً، يبحث عنه في مصدر آخر؛ لأنّ الذهبي لم يكن حريصاً على رواية الشعر، في الوقت الذي يبدي فيه الصفدي عناية كبيرة بالشعر، فقد لا يكون في الترجمة شيء أكثر من الاسم وبيتين من الشعر[46]، وفي أكثر الأحيان نجد الصفدي بعد أنْ يكمل الترجمة يقول: «ومن شعره. . .» ثم لا يروي أبياتاً، لأنّه لم يجد له شعراً يذكره؛ فيظل المكان خالياً، وكأنه على قناعة تامة بمقدرة كلّ الناس على نظم الشعر، أو كأنّ نظم الشعر عنده من كمال الشخصية، وتمام الظرف.

وإنْ كان نقل الصفدي من مصدر أدبي كالأغاني، ويتيمة الدهر، ودمية القصر، وخريدة القصر، والأنموذج لابن رشيق، كانت الترجمة مقتصرة على مكانة المترجم الأدبية وشيء من نظمه، وقد يجدها فرصة مناسبة؛ ليثبت مع الأبيات ما يناسبها من شعر له، أو لغيره.

وإن كان النقل من أكثر من مصدر نصّ على ذلك، ونسب كل نص إلى صاحبه[47].

---

(46) انظر: الوافي بالوفيات 22/ 157.

(47) راجع ترجمة أمين الدولة، أبي الحسن بن غزال في الوافي 12/ 104.

وربّما نقل ترجمة من مصدر، ثمّ وجد الترجمة ذاتها في مصدر آخر أكثر شمولاً، وأوسع استشهاداً؛ فيعيدها مرّة ثانية، وينسب الترجمتين إلى مصدريهما[48].

ولعلّ أهم ما يميِّز طريقة الصفدي في التراجم: الانتقاء، والتوثيق فكان اعتماده على المؤرخين الثقات الذين سبقوه، وتضم قائمة مصادره التاريخية ـ التي حاولتُ استخلاصها من كتابه الوافي بالوفيات ـ عدداً كبيراً جداً من أمهّات المصادر التي هي عمدة المؤرخين في كل العصور، وعليها المعوّل في الثقافة العربية[49].

التراجم المنقولة بالرواية الشفهية:

كان يسأل عن الأعلام مَنْ رآهم وعرفهم معرفة موثّقة، أو لهم بهم صلة؛ فكثيراً ما كان يسأل أبا حيّان عن أعلام المغرب، أو يسأل الأُدْفَوِي عن أعلام الصعيد، أو يسأل الوافدين على الديوان عن الأعلام في بغداد، وغيرها من البلاد التي تبعد عن مكان إقامته، ولم يرتحل إليها، والمعلومات التي يدوّنها في هذه التراجم هي بحسب ما سمعه وما أُخْبِر به.

التراجم المنقولة بالمعرفة المباشرة:

في تراجم المعاصرين له، كان يستقي معلوماته عنهم منهم مباشرة، فيسألهم عن مولدهم، وأحوالهم، وشيوخهم... أو من مصادر رسمية اطّلع عليها بحكم منصبه في الديوان؛ ولذلك تضم تراجمه عدداً كبيراً من الوثائق التاريخية مثل: التواقيع، والتقاليد، والمناشير، والمراسيم، والفرمانات... إلى جانب الوثائق الشخصية كالإجازات، والرسائل، والتقاريظ.

---

(48) راجع: ترجمة أبي محمد، القاسم بن القاسم بن عمر، الواسطي، فقد نقلها أولاً من الحديقة، لأميّة بن أبي الصلت، الترجمة رقم (146/أ)، ثم أعادها نقلاً عن معجم الأدباء، الترجمة رقم (147). انظر: الوافي بالوفيات 24/ 148، 150.

(49) راجع بعضها فيما قرأه على شيوخه، وفي الحديث عن ثقافته في كتابي «الصفدي وآثاره في النقد والأدب.

وانظر: مقدمة تحفة ذوي الألباب 1/ 8، والوافي بالوفيات 17/ 712.

ونلاحظ فرقاً جوهريّاً بين تراجم المصدر الأول، وتراجم المصدرين الآخرين؛ ذلك لأنّ الصفدي يكتب التاريخ بنظرة فنّان، شاعر، أديب، تلتقط عينه أدقّ التفاصيل، ويعيش في فكره الواعي، وشعوره المتيقّظ مختلف الألوان، والأشكال، والصور، والطعوم، لا يغفل عن شيء مما يحيط به، في الأرض، وفي السماء، ويرسم صورة للمترجم تنطق بقسمات الوجه، وطول القامة، ولون العينين، وما يختلج في داخله من نوازع الخير والشر، وأكثر ما تتجلى تلك التراجم في أعيان العصر، ولم أعرف أحداً غيره من المؤرخين عُني بكل هذه الجوانب المميّزة للشخصية.

وفي ترجمة ابن بَصْخَان[50] يبدو الفرْق جليّاً بين مذهبي الإمام الذهبي وتلميذه الصفدي في التراجم، فبينما يحدثنا الذهبي عن شيوخ ابن بصخان، ووظائفه، ويختم روايته بقوله: «وذهنه متوسط، لا بأس به، ثم وَلِيَ، بلا طلب مشيخة التربة الصالحية بعد مجد الدين التونسي بحكم أنه أَقْرَأُ من بدمشق في زمانه... انتهى[51]، ثم يأتي دور الصفدي في الترجمة فيقول[52]: «قلت: وكان بَهِيّ المحيّا، يَطْوِي السّكُونَ طيّاً، ظاهر الوقار، بادي التّكبُّر على الناس والاحتقار، نظيف اللِّباس، طيّب الرائحة في الانطلاق والاحتباس، ظريف العمامة، كأنّه من بياض ثيابه حمامة، له قُعْدُدٌ في جلوسه وتَسَدُّدٌ في ناموسه، وكذا إذا مشى لا يلتفت، ولو زحمه اللّيث والرَّشا، وإذا كان في حالة تصدّره للقراءة، يتلبّس بالتّوقّر على التّوقُّر والأناة، لا يتنحّم، ولا يتلفّت، لا يعير بصره وسمعه غير من يقرأ عليه، إنْ عَطَسَ، أو شَمَّتَ مشغولاً بمن قد أمَّه قُدَّامه، مجموع الحواس على القارىء الذي جعله إِمَامَهُ أَمَامَهُ:

وَيَبْقَى عَلَى مَرِّ الْحَوادِثِ صَبْرُهُ وَيَبْدُو كَمَا يَبْدُو الْفِرِنْدُ عَلَى الصَّقْلِ

(50) أبو عبد الله محمد بن أحمد، بدر الدين، ابن عين الدولة (668 ـ 743هـ) شيخ القراء بدمشق، له شرح حرز الأماني. انظر: معجم الشيوخ 2/ 140، والوافي بالوفيات 2/ 159، وأعيان العصر 4/ 282، ونكت الهميان 239.

(51) أعيان العصر 4/ 284.

(52) نفسه.

. . . . واشتهر عنه أنّه كان لا يأكل اللّحم إلاّ مصلوقاً، والحلاوة السُّكّريّة، لا غير، وقيل: إنّه لم يأكل المشمش في عمره.

وكان له مِلْكٌ يرتفق بمصالحه، ولم يتناول من الجهات درهماً، ولا طلب جهة كمال أهليّته.

وكان يدخل الحمّام وعلى رأسه قُبْع لِبّاد غليظ[53]، إذا تغسّل رفعه، وإذا أبطل قَلْبَ الماء أعاده؛ فأفاده ذلك ضعفاً في بصره، وكان طيّب النّغمة.

دخل يوماً هو والشيخ نجم الدين القحفازي، في درب العجم، وفيه ظروف زيت، فعثر في أحدها، فقال نجم الدين: تَعِسْنَا في ظرف المكان. فقال له الشيخ بدر الدين: لا، بل تمشي بلا تمييز. فقال: إنَّ ذا حال نحس».

ويذكر الصفدي أنّه أجازه، وروى شيئاً من شعره، وينتقده، فيقول: قد حقّق الشيخ بدر الدين ـ رحمه الله تعالى ـ ما قيل عن شعر النحاة من الثقالة، على أنّني ما اعتقد أنَّ أحداً رضي لنفسه أنْ ينظم هكذا، والذي أظنّه أنّه تعمّد هذه التراكيب القلقة، وإلاّ فما في طباع أحد يعاني النظم هذا التّعاظُل، ولا هذا التعسّف، ولا هذه الرِّكّة؛ ولكنّ المعاني جيِّدة، فهي عروس تُجْلىٰ في ثياب حداد».

ويقول عن ابن الرّسام: «وكان يلثغ في الجيم فيجعلها كافا، يُشِمُّها شيناً معجمة، ولو أكل فُسْتقة عرق لها من فرقه إلى قدمه، وكان متديّناً، قليل الشر، حسن الوُدّ والصُّحْبة»[54].

ولو أردت تفصيل دقّة الفنان في تصوير الشخصيات لنقلت كل تراجم معاصريه، وأكتفي هنا بلمحات خاطفة، وعلى مَنْ يريد المزيد الرجوع إلى المصدر المشار إليه في الحواشي.

---

(53) القُبع: غطاء للرأس. انظر: Dozy: Supp. dict, arab. VII, p311.
: Dict, dét. n. vêtem. arab. p344.

(54) الوافي بالوفيات 22/ 179.

* «لا يحتمل أنَّ أحداً يعارضه، أو يراسله، أو يقارضه، فينفر فيه، ويَزْبُرُه، ويكسره بالقول، ولا يجبره.

وكان في خُلُقِه زَعَارَة، وشراسه، وحدّة، لا ينكّس الكبر لها رأسه، لا يخَضَع لأمير ولا لقاض، ولا ينفعل لإبرام، ولا لانتقاض.... وكان به وسواس في تكبيرة الإحرام، وتطويل حتى يفوته بالركوع الإمام»[55].

* «وربّما تحيّل عليه بعض الناس فيما يرومه منه، بأنْ يستصحب معه شاباً حسن الصورة، فإنّه كان يميل إلى ذلك، مع عفاف وصون»[56].

* «وكان شيخاً طوالاً، ويجلس والقارورة مشدودة في وسطه للبول»[57].

* «وحضر جنازته خلق كثيرة، وكان يوماً كثير المطر والوحل، ودفن بتربة الشيخ أبي عمر»[58].

ذكر الصفدي كثيراً من شعره في تراجمه، مدحاً، أو رثاءً، ونراه في شعره ـ كما هو في نثره ـ ينتهج طريقاً خاصة به، وسأضرب بعض الأمثلة التي توضّح مذهبه في هذين الغرضين.

أولاً: المدح السياسي والاجتماعي

قسّم الدكتور ياسين الأيوبي المدح إلى نوعين[59]:

أحدهما **المدح المناقبي**، وعرّفه بقوله: «هو الذي اتجه به الشعراء نحو قيم الناس والمجتمع، والأفراد من أعيان، وأصدقاء وشيم خلقية مأثورة»، وجدير بالذكر أن الصفدي قد سمّى هذا النوع «**المدح الموجّه**»[60]، وهو تعريف

(55) أعيان العصر 3/ 602، وفي خلقه زَعَارَة، وزَعَارَّة ـ بتشديد الراء ـ شراسة، وسوء خلق، لا يتصرّف منها فعل، وربَّما قالوا: زَعِرَ الخُلُق. انظر: اللسان «زعر» 4/ 323.

(56) الوافي بالوفيات 22/ 449.

(57) نفسه 22/ 142، والأعيان 3/ 515، وعنهما ينقل ابن حجر في الدرر الكامنة 3/ 119.

(58) أعيان العصر 4/ 459.

(59) آفاق الشعر العربي 104 ـ 107.

(60) الروض الباسم «مخطوطة تونس» وكل إحالة هنا عليه 60/ ب.

لا بأس به، وهو عندي أفضل من تعريف الأيوبي؛ لأن المناقب شركة في كل أنواع المدح، لا يختصّ بها نوع دون آخر؛ بل لا يكون مدحاً بدونها.

وفي رأيي أنّ أفضل تسمية لهذا النوع من المدح «**المدح التصويري**»، ذلك لأن الشاعر يصوّر الممدوح في صورة متفردة، يبيّن فيها ملامح الوجه، وتركيب الجسم، ولوازم الحركة، وطريقة السلوك، والحالة النفسية والخلقية، والمهنيّة، بحيث لو سمع شخص هذا الوصف، وكان يعرف الممدوح معرفة شخصية لعرف أنه المقصود به، وإنْ لم يُذْكَر له اسمه، فهو أشبه بالصورة المرسومة، أو «الفوتوجرافية» للممدوح، يندر أنْ تتشابه مع غيرها، ويستحيل تطابقها، ولم يظهر هذا النوع من المدح إلا في العصور المتأخرّة، وبرع فيه الصفدي بصفة خاصة.

والآخر **المدح السياسي**، وعرّفه بقوله: «هو غزل من نوع آخر، ينظمه الشاعر في محاسن الممدوح، وأوصافه، ومنجزاته الاجتماعية، والدينية، والعسكرية، وأكثر ما يكون في الملوك، والأمراء، والقُوَّاد، والقضاة، من ذوي النفوذ، وتقرير المصير على مختلف الصعد. . . إنّ غالبية المِدَح التي قيلت في الملوك متشابهة، فيما بينها، ولا سبيل إلى تمييزها إلاّ بشيء من المعاني الشكلية التي تعود للحسب، والنسب، وبعض الأحداث الواقعة في عهده».

وقد نظم الصفدي في النوعين.

فمن النوع الأول: كتب إلى أثير الدين أبي حيّان[61]:

لَوْ كُنْتُ أَمْلِكُ مِنْ دَهْرِي جَنَاحَيْنِ ... لَطِرْتُ، لَكِنَّهُ فِيكُمْ جَنَى حَيْنِي

يَا سَادَةً، نِلْتُ فِي مِصْرٍ بِهِمْ شَرَفاً ... أَرْقَى بِهِ شُرَفاً تَنْأَى عَنِ العَيْنِ

وإنْ جَرَى لَسَما كِيوَانَ ذِكْرٌ عَلاَ ... أَحَلّنِي فَضْلُهُمْ فَوْقَ السِّمَاكَيْنِ

وَلَيْسَ غَيْرُ أَثِيرِ الدّينِ أَثَّلَهُ ... فَسَادَ مَا شَادَ لِي حَقًّا بِلاَ مَيْنِ

حَبْرٌ، وَلَوْ قُلْتُ: إنّ الْبَاءَ رُتْبَتُهَا ... مِنْ قَبْلُ، صَدَّقَكَ الأَقْوَامُ فِي ذَيْنِ

(61) أعيان العصر 5/ 337.

أَحْيَا عُلُوماً أَمَاتَ الدَّهْرُ أَكْثَرَهَا مُذْ جُلِّدَتْ خُلِّدَتْ بَيْنَ دفَّيْنِ

إلى آخر الأبيات التي يبيّن فيها ما شهر به أبو حيّان من تدريس كتاب سيبويه، وتفرّده بالعلوم، في عصره...[62].

ومن النوع الثاني: قال في مدح الملك الناصر محمد بن قلاوون[63]:

بِعِزِّ نَصْرِكَ أَضْحَى الدَّهْرُ يَبْتَسِمُ وَعَنْ رَعَايَاكَ وَلَّى الظُّلْمُ، وَالظُّلَمُ
يَا نَاصِرَ الدِّينِ وَالدُّنْيَا، وَيَا مَلِكاً ذَلَّتْ لِعِزَّتِهِ فِي أَرْضِهَا الأُمَمُ
أَصْبَحْتَ سُلْطَانَ أَهْلِ الأَرْضِ قَاطِبَةً سَارَتْ بِأَنْبَائِكَ الوَخَّادَةُ الرُّسُمُ

ويستمر في قصيدته فيبين سعي الناس في خدمته، وأنّ الملوك تخاف بأسه، وأنَّ الأسود تخشاه، ثم يصفه بالكرم، والحلم، وما امتاز به من خلق...

ثانياً: الرِّثَاء

وهو من الأغراض القديمة، بل لعلّه أقدم أغراض الشعر مطلقاً، وهو أكثر أغراض الشعر صدق عاطفة، وحرارة إحساس؛ لأنه في الغالب يظهر عجز الإنسان أمام غلبة الموت، ويعبّر عن لوعة الألم أمام مصيبة الفقد، وشدّة الحزن لفراق الأحباب، وتنوّعت موضوعاته، بحسب الأحوال، والظروف، فمن رثاء العظماء، إلى رثاء الأهل والأصحاب، إلى رثاء الدول والممالك، وكان للصفدي دوواين كاملة في الرثاء ـ له كتاب «ساجعات الغصن الرطيب» الذي جمع فيه مراثي شيخه نجم الدين الصفدي ـ ولما مات أخوه إبراهيم في سنة 742هـ، رثاه بقصائد ومقاطيع كثيرة[64]، ذكر منها قصيدة، و26 مقطوعة، وأول قصيدته:

---

(62) راجع ـ أيضاً ـ مدحه ابن سيد الناس في (أعيان العصر 5/ 223)، وابن القيسراني في (أعيان العصر 5/ 557)..

(63) نفسه 5/ 102.

(64) راجع: الوافي بالوفيات 5/ 332 ـ 337.

إِذَا لَمْ يَذُبْ إِنْسَانُ عَيْنِي، وَأَجْفَانِي عَلَيْكَ فَمَا أَقْسَى فُؤَادِي، وَأَجْفَانِي
رَحَلْتَ بِرَغْمِي يَا أَخِي، وَتَرَكْتَنِي وَحِيداً أُقَاسِي فِيكَ أَحْزَابَ أَحْزَانِي
وَحَلَّ بِكَ الأَمْرُ الَّذِي جَلَّ خَطْبُهُ لَقَدْ بَلَّ أَرْدَانِي بِدَمْعِي، وَأَرْدَانِي

وإنّك لتحس بهذا الحزن العميق الذي يفتّت الأكباد، ويقطّع القلوب، وإنّك لتحس بأنّ الجناس في هذه الأبيات وَظَّفَ الكلمات لإثراء المعاني في تصوير الأسى الذي يُفْقِدُ المرء توازنه؛ ويفقده الإحساس بتمايز الأشياء، فقد تساوىٰ الموت والحياة، والتقت الأحزاب والأحزان، وتعاونت الأردان والأرداء.

ومن سمات الرثاء عند الصفدي ـ كما في مدحه ـ ما يمكن أنْ نسميه ـ أيضاً ـ «الرثا التصويري» الذي يرسم فيه صورة للفقيد تبيّن قسمات الوجه، وشكل الجسم، والصفات الخِلْقِيَّة والخُلُقِيَّة والنفسية، وغيرها من العلامات التي تميّز فرداً من فرد، واقرأ رثاءه لابن ريّان[65]، الذي كان يقوم الليل، ويركع قبل الفجر قريباً من عشرين ركعة، وله في كل أسبوع ختمة، يقرؤها هو وأولاده، ويصوم كثيراً في غير رمضان، قال[66]:

مَنْ لِلظَّلامِ إِذَا نَامَ الأَنَامُ غَدَا «يُقَطِّعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحاً، وَقُرْآنَا؟»
وَمَنْ لِمِحْرَابِكَ الزَّاكِي، فَلَيْسَ يَرَى مِنْ بَعْدِ فَقْدِكَ فِيهِ قَطُّ إِنْسَانَا؟
كَمْ قَدْ خَتَمْتَ كِتَابَ اللهِ مُتَّعِظاً وَفِي تَدَبُّرِهِ كَمْ رُحْتَ وَلْهَانَا
وَكَمْ حَثَثْتَ الخُطَا نَحْوَ الصَّلاةِ لأَجْـ ـلِ الصَّفِّ الأَوَّلِ فِي الأَسْحَارِ عَجْلانَا

(65) سليمان بن أبي الحسن، جمال الدين (663 ـ 749هـ) ناظر الجيش في حلب، عابد زاهد، مولع بكتابة القرآن الكريم بخطه الجميل، وتذهيبه.

انظر: أعيان العصر 2/ 426، والوافي بالوفيات 15/ 367، والدرر الكامنة 2/ 145.

(66) أعيان العصر 2/ 428 ـ 430، والشطر الثاني من البيت الأول مضمن من رثاء حسان بن ثابت لعثمان بن عفان، وأوّله:

«ضَحُّوا بِأَشْمَطَ عُنْوَانُ السُّجُودِ بِهِ»

وفي البيت الرابع أبدل بهمزة القطع همزة وصل في كلمة «الأول»، وهو جائز في الشعر.

تُوَاظِبُ الصَّوْمَ يَوْمَ الخَمِيسِ، وَفي الْـ ـإِثْنَيْنِ، حَتَّى لَقَدْ أَمْسَيْتَ خَمْصَانَا
وَكَمْ مَمَالِكَ قَدْ دَبَّرْتَ حَوْزَتَهَا فَكُنْتَ خَيْرَ وَزِيرٍ، قَطُّ مَا خَانَا
وَتَسْتَقِيمُ بِكَ الأَحْوَالُ مَاشِيَةً حَتَّى تَفِيضَ بِكَ الأَمْوَالُ طُوفَانَا
لله دَرُّكَ، كَمْ جَمَّلْتَ مَدْرَسَةً وَبِالْكِتَابَةِ كَمْ شَرَّفْتَ دِيوَانَا
فَكُنْتَ في الجُودِ غَيْثاً، وَالهُدَى عَلَماً وَفِي الحِجَا حُجَّةً، وَالعِلْمِ نَهْلانَا

والقصيدة طويلة، وهي في جملتها ترسم بصمات هذه الشخصية المتفرّدة في الأمانة، والعبادة.

وفي حديث لي مع الصديق الأستاذ أسامة عبد الرزاق، الناقد العراقي، أخبرني أنَّ هذا النوع من الرثاء سمَّاه الدكتور إحسان النص «الرثاء الوصفي»، وقد أوحت لي هذه التسمية بكتابة مقال في هذا المصطلح، فمن المعروف ـ وهو ما ذكره الصفدي ـ أنَّ هناك فرقاً بين كلمتي: الوصف، والصفة؛ «قالوا: الوصف ما يجوز انتقاله كحمرة الخجل، وصفرة الوجه، والصفة ما لا تتغيَّر كالطول والقصر، والسواد للزنجي، والبياض للصقلّي[67]، وعندما رجعت إلى لسان العرب للبحث في الجذرين «وصف» و«صور» تبيّن لي أنَّ وَصْفَ الشيء: تحليته، وتزيينه، وإظهاره على غير حقيقته، وقد يكون فيه تعمّد الكذب، وهو ما فُسِّر به قول الله تعالى: ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[68]، أراد: ـ والله أعلم ـ ما تصفونه من الكذب، أو تفترونه، وتزوّرونه، ومنه بيع المواصفة، وهو أنْ يبيع الشيء من غير نظر، ولا حيازة ملك[69]؛ فأكثر ما تستعمل الكلمة في ما لا أصل له، ولا حقيقة لصفته، وأمَّا التصوير فقد جاء في مادته: «المصوّر وهو الذي صوّر جميع الموجودات، ورتّبها فأعطى كلَّ شيء منها صورة خاصة، وهيئة مفردة، يتميّز بها على اختلافها، وكثرتها»، وتتنوع معاني الكلمة لتدل على كثير من المعاني، منها: التخيّل، والحُسْن، والقبح، والصوت، والحركة،

(67) الغيث المسجم 1/ 272.

(68) سورة الأنبياء، الآية: 113.

(69) انظر: اللسان «وصف» 9/ 356.

والسكون، والظاهر، والباطن. . .[70] ومن موازنة الجذر في الكلمتين تبيّن لي أنَّ وصف هذا الفن بالتصويري أقرب إلى الحقيقة من الوصفي.

سبق القول: إن الصفدي تلمذ لأشهر مؤرخي عصره، وهو الإمام الذهبي، صاحب «تاريخ الإسلام» الذي كان أهمّ مصادر الصفدي في كتاباته التاريخية، ولكنْ لا يعني هذا أن الصفدي سار على نهج أستاذه، بل اختار لنفسه منهجه الخاص القائم على الانتقاء، والتوثيق، ويمكننا أنْ نبيّن الفرق بين المنهجين، فيما يلي:

* لم يكن الوصف الفني هو الفارق الوحيد بين أسلوب الذهبي في الترجمة وأسلوب تلميذه، فقد سبق القول بأنّ منهج الصفدي يقوم على الانتقاء؛ فالذهبي[71] قلَّما يذكر كنى الآباء كما فعل محمد بن سعيد، ابن الدُّبيْثي (ت 637هـ)، ومحمد بن محمود، ابن المجار (ت 643هـ)، في تاريخيهما، حيث ذكرا عدداً من كنى الآباء في نهاية الاسم، وعبد العظيم بن عبد القوي المنذري (ت656هـ) كان يذكر الكنى قبل ذكر اسم الأب، فضلاً عن الصفات المادحة، وانتقى الصفدي طريقته الخاصة به؛ فيجمع بين الأسماء، ويعيدها بالكنى والألقاب والصفات المادحة، وفي تراجم الأشراف، والصالحين ـ خاصة ـ كان الصفدي حريصاً على ذكر الكنى والألقاب للآباء والأجداد، حتى يصل بالنسب إلى الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أو القطب الصالح الذي ينتسب إليه المترجم، قال في ترجمة محمد ابن شِرْشِيق بن محمد بن عبد العزيز بن عبد القادر بن صالح بن دُوِسْت بن يحيىٰ الزاهد بن محمد بن داود بن موسى بن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله المحسن بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، الشيخ الإمام العارف الكامل شمس الدين أبو المكارم ابن الشيخ الإمام القدوة حسام الدين أبي الفضل بن الشيخ الإمام القدوة جمال الدين أبي عبد الله بن الشيخ الإمام علم الدين الزّهَاد

(70) انظر: اللسان «صور» 4/ 473.

(71) راجع: الذهبي ومنهجه في كتابه تاريخ الإسلام 362.

شمس الدين أبي المعالي بن الشيخ الإمام قطب العارفين أبي محمد الجيلي الحسني الحنبلي المعروف بالحيالي»[72].

* وكان الصفدي حريصاً على أعراض الناس، وعدم الخوض فيها ولا، يتّهم أحداً في عقيدته، وكثيراً ما يعقّب على الروايات بقوله:

«والله أعلم بسريرته؛ فإنَّ الناس كانوا يتهمونه...»[73].

* وفي الوقت الذي يكتب فيه التاريخ بنظرة الفنان، لا يغفل الأمانة العلمية، ومناقشة الآراء بموضوعية وذكاء؛ فنراه يرفض مجازفات المؤرخين من أمثال محمد بن إبراهيم بن أبي بكر، شمس الدين الجزري (ت 739هـ) في تقدير ثروة الأمير سلاّر[74].

ويعلّق على ما رواه أحمد بن محمد، ابن عبد ربه (328هـ) صاحب العقد، وغيره من حكاية المرأة التي تحسن معرفة العَروض، وأراد بعض الناس العبث بها، فقال: «والذي اعتقده أنَّها موضوعة»[75].

ويصحّح وهم ابن خلّكان (ت681هـ) في ترجمة ابن المنجم[76].

ويستخدم الاستقراء، والمقارنة بين الروايات للوصول إلى الحقيقة[77].

وينقد قصة وضّاح اليمن مع أم البنين[78].

* ومما يفرّق بين الذهبي والصفدي ـ أيضاً ـ الاستطراد، فالذهبي لا

---

(72) أعيان العصر 4/ 464.

(73) نفسه 1/ 142، و1/ 144.

(74) الوافي 16/ 57.

(75) الغيث المسجم 1/ 56.

(76) الوافي بالوفيات 22/ 276.

(77) راجع تقديره لمولد الطغرائي، ووفاته، في الغيث المسجم 1/ 16 ـ 17، ويصحح الأسماء في مواضع كثيرة في الوافي بالوفيات مثلاً 5/ 18، 189، 225، 228 236، 6/ 62، 76، 7/ 20، 145، 11/ 137، 140.

(78) الوافي بالوفيات 18/ 119.

يخرج عن سيرة المترجم؛ ولكنّ الصفدي يكثر من الاستطراد، فيناقش القضايا الفقهية، واللغوية، والنحوية، والبلاغية، ويروي الطُرَف والفكاهة والألغاز، كما يكثر من رواية الشعر لأدنى مناسبة، ولا يغفل بيان أحوال الناس في مسكنهم، وملبسهم، ومعيشتهم؛ ولهذا فكتب الصفدي تُعدّ موسوعة منوّعة المعارف، متعدّدة الثقافات، غزيرة الفائدة.

ونلاحظ أنه في تواريخه ـ أحياناً ـ يغفل سنوات الوفيات أو الميلاد، ويترك مكانها خالياً، والراجح أنه لم يتحقّق عنده هذا التاريخ، وقد أشار إلى ذلك بقوله[79]: «ولم أُخلّ بذكر وفاة أحد منهم إلاّ فيما ندر، وشذَّ، وانخرط في سلك أقرانه، وهو فذٌّ لأنّي لم أتحقق وفاته، وكم مَنْ حاول أمراً فما بلغه، وفاته»، فلم يكن تركه لها من السهو، أو النسيان.

* ومما امتاز به منهج الصفدي في كتاباته التاريخية قوائم «الكنى والألقاب» التي يجعلها بين التراجم، في ترتيبها من الحروف، فيذكر أشهر الأعلام الذين عرفوا بتلك الكنى، أو بذلك اللقب، وأظنه أول من ابتكر هذا المنهج، واختط هذه الطريق، قد يكون استفادها من كتب المحدثين، وأدخلها كتب التاريخ، وسار على نهجه المؤرخون من بعده، وأشهر المعاجم التي سارت على خطته «الأعلام» للزركلي، بل إنّ الترتيب فيه لا يختلف عن ترتيب الوافي بالوفيات، فكلّ منهما يرتّب الأعلام بحسب الاسم الأول، واسم الأب، فقط، ويقدّم السابق منهم في الوفاة على المتأخر، بصرف نظر عن اسم الجد، أو اللقب، مع ملاحظة أن أعلام الزركلي أكثر دقّة في الترتيب من الوافي، بحكم أن الصفدي قد يضيف اسماً، لم يتمكّن من وضعه في ترتيبة، وقد يكون من عمل النسّاخ[80].

---

(79) نفسه 1/ 6.

(80) راجع مثلاً في الجزء الأول من الوافي بالوفيات التراجم 172 ـ 176 تجد وفياتهم في سنوات 400، 493، 466، 472، 505 على الترتيب، ولاحظ أن الترجمة رقم 173 سبقت غيرها.

نظرات في الكتاب المطبوع:

لا بد من الاعتراف بالجهد المشكور الذي بذله المحققون، والمشرفون على الطباعة في إخراج هذا الأثر القيم على الصورة الطيبة التي ظهر بها، ولكن العمل الإنساني موسوم بالعجز والتقصير، والكمال لله وحده، وهذه بعض الملاحظات التي ظهرت لي من قراءتي للكتاب.

أولاً: أمور مغفورة أوجبها توزيع التحقيق، وضخامة العمل، منها:

1 ـ ترك إثبات الصفحة والجزء عند الإحالة على ترجمة سابقة، أو على ترجمة لاحقة: انظر مثلاً: 1/ 70 ح68 ح2 «تقدمت ترجمته»، أو «سلفت ترجمته» مثلاً: 1/ 492...، أو «ستأتي ترجمته في موضعها» انظر مثلاً: 1/ 114، و143.

2 ـ ترك الأسماء على عادة الأقدمين في كتابتها، والمفروض تحديثها، فمثلاً: ابن المُنجَّا ـ تكتب الآن ابن المنجّى لأنَّ الهمزة الرابعة فأكثر تكتب ياء مطلقاً، وبدون خلاف إلاّ إذا كان العلم أعجمياً، ولا أظنُّ أنّ هذا الاسم أعجمياً بوجه من وجوه التأويل، أو كانت الهمزة مسبوقة بياء، وهي هنا غير مسبوقة بها.

3 ـ العَلَم «تَمُر» والأعلام المنتهية به مثل: بِكْتَمُر، طَشْتَمُر، طُقُزْتَمرُ ـ وهي كثيرة جداً في عصر الدولة المملوكية ـ تضبط بفتح التاء، وضم الميم، وتكتب بالفرنسية Témour، وجرت عادة المحققين على ضبطها بضم التاء، وترك الباقي، وهو خطأ. انظر مثلاً 1/ 141.

4 ـ بعض الأماكن المجهولة ـ وما أكثرها ـ لم يعرف بها المحققون، مثل: المزيريب، وقد وردت في ثلاثة مواضع راجع الفهرس 292، وهذه الأماكن في الشام وهم أعرف الناس بمواقعها، وبين أيديهم خططها، ومصادر التعريف بها.

5 ـ الخطأ في أسماء بعض الأعلام في الفهارس، فمثلاً:

* في ترجمة أحمد بن محمد، كمال الدين، البكري 1/ 317 مثبتة في المتن بقلب البكري، وفي الحواشي يعرف بابن الشريشي أيضاً، وفي الفهارس أحمد بن محمد البكري الأفرم، ولا أدري من أين جاء لفظ الأفرم هذا، وهو من ألقاب أمراء المماليك من أرباب السيوف، ولم يكن البكري محارباً.

* في الإحالات على الإمام ابن عبد الدائم وَهَلَ المحقّقون في أنّ هناك عالمين بهذا اللقب: الأول: «الأب» زين الدين أحمد بن عبد الدائم بن نعمة المقدسي، وعرّف به المحقّقون في 1/ 65، ويذكر في المتن دائماً بدون قيد.

والثاني: «الابن» أبو بكر بن أحمد الذي ترجمه الصفدي فيما بعد 1/ 726 فهو ـ أيضاً ـ ابن عبد الدائم، ويذكر في المتن دائماً مقيّداً باسمه، وفي الفهارس جاء ذكره مرتين:

في صفحة 38 «أبو بكر بن عبد الدائم»، وفي الإحالات عليه خلط بينه وبين أبيه، كما في 4/ 275، فهو يذكر دائماً مقيّداً بأبي بكر.

وفي صفحة 37 «أبو بكر بن أحمد بن عبد الدائم»، وكأنّهما شخصان مختلفان وفي الإحالات على الأب ـ أيضاً ـ خلط بينه وبين الابن، تحتاج إلى إعادة مراجعة.

6 ـ لم يكن من اللائق بالمحققين إهمال التعريف ببعض المصطلحات البلاغية وغيرها مما يحسن التعريف به، فمثلاً: في صفحة 59 ح4، إشارة إلى «التوجيه»، وفي 1/ 67 ح2 إشارة إلى التورية...

ثانياً: أمور لا تغتفر

فهي مخالفة للمنهج العلمي في التحقيق، منها:

1 ـ أكثر الحواشي، وشروح المصطلحات، والكلمات تذكر بدون إحالة إلى مصدرها وإنْ كانت اجتهاداً شخصياً يجب التنبيه على ذلك، فضلاً على

أن بعضها غير صحيح، انظر مثلاً: 1/ 43 ح8، 49 ح6، 56 ح3، 57 ح3و4، 59 ح5 66 ح5. . .

2 ـ فصل أسماء العقود المئوية المركبة، في الأعداد إلى اسمين وقد جرت العادة أن تكتب الأرقام 300 (ثلاثمائة)، 400 (أربعمائة)، 500 (خمسمائة)، 600 (ستمائة) وهكذا، ولكن المحققين آثروا فصل العددين فيكتبون الرقم مفصولاً: ثلاث مئة، أربع مئة، خمس مئة، وست مئة. . في الكتاب من أوله إلى آخره، ولا أعرف السبب في ذلك، ولا أظنني رأيتها مفصولة من قبل، وفي درس الفصل والوصل في الإملاء منصوص على مواضع الوصل، ومنها «ما رُكِّب مع العدد (مائة) من الآحاد المضافة إليها من ثلاثمائة إلى تسعمائة»[81].

3 ـ عدم مراعاة الأسلوب العلمي في ترتيب الفهارس الفنية؛ فمثلاً في فهرس الشعر، من الواجب أنْ يرتّب بحسب ترتيب القوافي ألفبائياً، وترتيب حركاتها، والتقيّد بترتيب البحور بحسب دوائرها، فيسهل على الدارسين العثور على ما يبحثون عنه منها، وقد ترك المحقّقون هذا الأسلوب، وأدخلوا القوافي بعضها في بعض، وأصبح لزاماً على من ينشد بيتاً أنْ يقرأ أكثر من ثمانين صفحة من الفهارس، وقد لا يحصل على ضالته، وقد أحدثوا ترتيباً عجيباً للشعر، ورتّبوه مرتين؛ ففي المرة الأولى رتّبوه ألفبائياً بحسب مطالع الأبيات، وفي منتصف صفحة 314، وبدون فاصل، أعادوا ترتب الأبيات مرة ثانية بحسب مطعالها والتي تنتهي بقافية واحدة، وقد تداخلت البحور بعضها في بعض، واختلط المجرى الساكن بالمضموم، والمفتوح، والمكسور؛ وإذا علمنا إنَّ مطلع البيت ليس أساساً معتمداً في الترتيب؛ وذلك لتعرّضه للاختلاف في الرواية، ولتعاقب واو العطف والفاء في أكثر الأحيان، وفي الوقت نفسه قد يكون البيت طالع قصيدة

(81) انظر: مقال «الفصل والوصل في الإملاء العربي» للأستاذ مصطفى محمد الباجقني مجلة كلية اللغات 54.

تتكوَّن من عدد كبير من الأبيات، فكيف يمكن للباحث أنْ يهتدي إلى بغيته إذا كانت بحور الأبيات غير مذكورة في الفهرس؟

4 ـ سقطت كثير من الأعلام في الفهارس، انظر مثلاً: أبغا، لاجين المنصور..

5 ـ كان الواجب عمل فهرسين منفصلين: أحدهما للمترجمين، والآخر للأعلام، ولكن الخطة التي استعملت في الكتاب هي صنع فهرس واحد للجميع، وإنْ مُيّز المترجمون بالخط الداكن فهو غير دقيق في أكثر الأحيان.

6 ـ وهناك أمور أرى أنها توجب التصحيح، أو التنبيه إليها، ولم أثبت هنا الأخطاء المطبعية، أو الإملائية؛ فالقارىء يستطيع تصويبها بنفسه، وقد وضعتها في قوائم، أبعث بها لمن يريدها، ولا مجال لذكرها هنا، وهذه الأمور هي موضوع المقال التالي.

وما التوفيق إلاَّ بالله

المصادر والمراجع العربية

- **آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي**، للدكتور ياسين الأيوبي، ط/1 جروس برس، طرابلس ـ لبنان، سنة 1995م.
- **الأعلام**، خير الدين الزركلي، ط6، دار العلم للملايين، بيروت سنة 1984م.
- **أعيان العصر وأعوان النصر**، تحقيق د. علي أبو زيد، ود. نبيل أبو عمشة، ود. محمد موعد، ود. محمود سالم محمد، ط/1، دار الفكر المعاصر، دمشق، سنة 1997م، مطبوعات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي.
- **ألحان السواجع بين البادي والمراجع**، للصفدي، تحقيق د. محمد عبد الحميد سالم، مكتبة دار العروبة، الكويت، وطبع مطبعة التقدم بمصر، سنة 1985م.
- **تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب**، تحقيق إحسان بنت سعيد خلوصي، وزهير حميدان الصمصام، وزارة الثقافة، دمشق سنة 1991م.
- **خريدة القصر وجريدة العصر**، للعماد الكاتب، قسم شعراء الشام: تحقيق د. شكري فيصل، دمشق، منشورات المجمع العلمي العربي، سنة 1955م.

- **دائرة المعارف الإسلامية**، ترجمة إبراهيم زكي خورشيد، وآخرين، دار الشعب، القاهرة، بدون تاريخ.
- **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، لابن حجر، دار الجيل، بيروت، نسخة مصورة عن طبعة حيدر أباد الدكن، سنة 45 ـ 1950م.
- **دمية القصر وعصرة أهل العصر**، للباخرزي، تحقيق د. سامي مكي العاني ط2، دار العروبة، الكويت، سنة 1985م.
- **الذهبي ومنهجه في كتابة تاريخ الإسلام**، د. بشار عواد معروف، ط/1، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، سنة 1976م.
- **الذيل والتكملة لكتابي المحصول والصلة**، للمراكشي (ت 743هـ) تحقيق د. محمد بن شريفة، ود. إحسان عباس، ط/1، دار الثقافة، بيروت، تواريخ مختلفة.
- **الروض الباسم والعرف الناسم«الثغر الباسم»**، مخطوط المكتبة الوطنية بتونس رقم 13689.
- **الصفدي وآثاره في النقد والأدب**، محمد لاشين، مخطوط، رسالة دكتوراه، قدمت إلى كليّة الآداب، جامعة عين شمس.
- **طبقات الشافعية الكبرى**، للسبكي، تحقيق محمود الطناحي، وعبد الفتاح الحلو، ط/1، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، سنة 1964م.
- **الغيث المسجم في شرح لامية العجم**، للصفدي، ط/2، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة 1990م.
- **لسان العرب**، لابن منظور، دار صادر بيروت، نسخة مصورة عن طبعة الجوائب، سنة 1300هـ.
- **مجلة كلية اللغات**، جامعة الفاتح، طرابلس، العدد الأول سنة 1991.
- **معجم الشيوخ** «المعجم الكبير»، للذهبي، تحقيق د. محمد الحبيب الهيلة ط/1، مكتبة الصديق، الطائف، سنة 1988م.
- **معجم البلدان**، ياقوت الحموي (ت626هـ)، دار صادر، بيروت، سنة 1979م.
- **معجم المؤلفين**، لعمر رضا كحالة، دار إحياء التراث العربي، بيروت سنة 1957م.
- **نكت الهميان في نكت العميان**، للصفدي، تحقيق أحمد زكي بك، المطبعة الجمالية، القاهرة، سنة 1911م.
- **نوادر المخطوطات العربية في مكتبات تركيا**، جمعها د. رمضان ششسن، ط/1، دار الكتاب الجديد، بيروت، سنة75 ـ 1980م.
- **الوافي بالوفيات**، للصفدي، تحقيق جماعة، من العلماء، تصدره جمعية المستشرقين

الألمانية، بفسبادن، بإشراف المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، في بيروت ظهر منه 24 جزءاً، غير متتابعة، آخرها الجزء 29 في سنة 1997م.

- **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**، للثعالبي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط/2، دار الفكر، بيروت، سنة 1973م.

المراجع الفرنسية

- Dozy, R; Supplement Aux Dictionnaires Arabes, Librairie du liban, Beyrouth, 1981.
- Dozy, R; Dictionnaire Détaillé des Noms Des Vêtements chez Les Arabe, librairie du liban, Beyrouth, sans date.